النفط في الشرق الادنى

١ — تاريخ النفط

ورد ذكر النفط في اقدم التواريخ التي في أيدينا فما جاء عنهُ في التوراة بهذا الاسم او باسماء اخرى كالحُمَر والكُفر والقار والزفت والزيت ما يأتي : —

جاء في سفر التكوين في بناء برج بابل (١١ : ٣) « وكان لهم الحُمَر بدل الطين » . وهذه الابراج البابلية لا تزال آثارها باقية الى يومنا وهي مبنية إما بالآجُرّ او باللبن وطينها الحُمَر اي القُفر البابلي وهو القير يؤتى به من هيت على الفرات . وفي التكوين (١٤ : ١٠) « وفي غَوْر السِدِّيم آبار حُمَر كثيرة » ويراد بغور السديم غور اريحا ولا يزال الحمر معروفاً هناك وهو قُفر اليهود او قُفر اليهودية . وفي سفر التثنية (٣٢ : ١٣) « وزيتاً من صَوَّان الجلمود » . وفي سفر أيوب (٢٩ : ٦) « والصخر يفيض لي انهاراً من الزيت » وهذا كلهُ يشير الى النفط اي زيت الصخر

وفي التكوين في وصف الفُلك (٦ : ١٤) « واصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعلهُ مساكن واطلهِ من داخل ومن خارج بالقار » ولا يزال العراقيون يعبّرون هذه القِفاف واحدها قُفّة وهي مراكب مستديرة مصنوعة من عيدان الطرفاء والتوت والصفصاف . وفي سفر الخروج في ذكر ولادة موسى (٢ : ٣) « ولما لم تستطع ان تخفيه بعدُ أخذَت لهُ سَفَطاً من بردي وطلتهُ بالحُمَر والزفت وجعلت الولد فيه ووضعتهُ بين الحيزُران على حافة النهر » . وهذا يشبه ما جاء عن ولادة سَرجون الاول ملك اشُّور قال « وضعتني في قُفّة من الحيزُران واقفلت بابها بالقار » (معلمة التوراة) [1] فهذه الشواهد ما عدا الاخير منها ورد فيها الحُمَر والكُفر والزيت بهذه الالفاظ عينها بالعبرانية مما يدل على قدمها وعلى كونها سامية

اما النفط فقد ورد ذكرهُ في سفر دانيال (٣ : ٤٦) وهذا العدد ليس في النسخة العبرانية قال « ولم يزل خدّام الملك الذين القوهم يوقدون الاتُّون بالنفط والزفت والمُشاقة والزَرجون » . وهو يشير الى قصة الفتية الثلاثة شدرخ وميشخ وعبد نجو

وورد ذكر النفط في سفر المكابيين الثاني (١ : ١٩ الى ٣٦) قال « فانهُ حين

(١) Encyclopedi Biblica

أجلي آبؤنا الى فارس اخذ بعض الكهنة من نار المذبح سراً وخبأوها في جوف بئر لا ماء فيها وحافظوا عليها بحيث بقي الموضع مجهولاً عند الجميع . وبعد انقضاء سنين كثيرة حين شاء الله ارسل ملك فارس نحميا الى هذا البعث اعقاب الكهنة الذين خبأوا النار لا لباسها الا انهم كما حدثونا لم يجدوا ناراً بل ماء خاثراً فامرهم ان يغرفوا ويأتوا به ولما أُحضرت الذبائح امر نحميا الكهنة ان ينضحوا بهذا الماء الحطب والموضوع عليه فصنعوا كذلك ولما برزت الشمس وقد كانت محجوبة بالغيم اتقدت نار عظيمة حتى تعجب الجميع » الى ان قال « فشاع ذلك وأُخبر ملك فارس انّ الموضع الذي خبأَتْ فيه الكهنة النار حين جلائها قد ظهر فيه ماء وبه طهّر الذين مع نحميا الذبيحة » الى ان قال « وسمّاهُ الذين مع نحميا نفطار اي تطهيراً ويعرف عند كثيرين بنفطاي »

وذكر هيرودوتس النفط في اردريقة التي هي قيرآب بخوزستان قال (٦ : ١١٩) « قرب اردريقة بئر يخرج منها ثلاث مواد مختلفة القير (اسفلت) والملح والزيت فيأخذون دالية[1] يعلّقون بها سُعْناً مكان الدلو فاذا نزل السُّعن في الماء رفعهُ رجل وصبّهُ في حوض يجري منهُ الماء الى حوض آخر ثم ينعقد القير ويجمد الملح ويبقى الزيت فيغرفونهُ . والفرس يسمون هذا الزيت راديانتي (كذا) وهو اسود منتن الرائحة » فهذه البئر هي الآن من آبار النفط التي للشركة الانكليزية الفارسية . وهم يستخرجون النفط منها وينقلونهُ في انابيب الى عبّادان على خليج فارس ويكررونهُ هناك »

وذكر فلوطرخس عيون النفط في كركوك قال « ان الاسكندر لما وصل الى اكبتانة (اي همدان وهو يريد كركوك) دهش لمّا رأى ناراً تخرج من نبع لا يتضب والمحيطُ نهر من النفط غير بعيد عن ذلك المكان وكان غزيراً جداً حتى كانت منهُ بحيرة والنفط شبيه بالقار الا انهُ اشدُّ منهُ التهاباً وهو يشتعل من لهب النار قبل وصولها اليه . واراد القوم هناك ان يظهروا للملك سرعة اشتعاله فنضحوا به الطريق الى منزله واشعلوه فالتهب في سرعة البرق والتهبت الطريق كلها » « انتهى ما اريد نقله عن فلوطرخس » . وفي كركوك عيون نفط كثيرة منها بئر النفط التي تفجّرت حديثاً . وهناك نار عجيبة لا تنطفىء وهي تتقد قبل ايام الاسكندر

(١) الدالية هي الناعورة في مصر والسعن نصف قربة يستقى به . والنفاطة فصيحة وتسمى في السودان وغيرها يسمون نوعاً من اللفاق ابا سعن لغراب في عنقه كالسعن وسألتهم مرة لماذا تسمونه ابا سعن قالوا لانه يحمل سعنة فقلت وما السعن قالوا قربة تقطع من نصفها تستقى منها وتشد فيها الدوة لحبل الناعورة فراجعتهم فاذا هم كما قالوا

ومن اسمائه بحر لوط عند العرب لبحيرة المقتة ردلك فراشة الكبريت والنفط فيها ومن اسمائها عند اليونان والرومان بحيرة الحمر (Locus Asphaltites) وقد ذكر ديودوروس الصقلي ان اهل الغور كانوا يجمعون الحمر ويبيعونه في مصر للتحنيط وروى ذلك بلينيوس الروماني والرحالة شو الانكليزي وشلتاي الفرنسي ولا يزال الحمر معروفاً هناك وهو حجر غير السديم الذي ورد ذكره في التوراة كما تقدم

كذلك علماء العرب كالمسعودي وابن البيطار والقزويني وغيرهم فان كثيرين منهم ذكروا القير والحمر والمومياء والنفط ووصفوا هذه المعادن وصفاً دقيقاً وكانوا يستعملونها في الطب واستعمل العرب النفط في حروبهم واول من استعمله منهم هرون الرشيد في فتح هرقلة سنة ٢٠٠ للهجرة سار اليها على اثر كتابه المشهور لنقفور ملك الروم ورماها بالنفط قال الشاعر في ذلك

هوت هرقلة لما ان رأت عجباً جوّ السما يرتمي بالنفط والنار
كأن نيرانها في جنب قلتهم مصبغات على أرسان قصّار

وهرقلة مدينة بالروم تسمّى الان أركلي وهي على ساحل البحر الاسود مما يلي خليج القسطنطينية المعروف بالبسفور. ونقفور هذا هو نقفور الاول وكان عربيًّا من ولد جبلة بن الايهم (١)

وقبل ايامه اي في زمن معاوية اكتشف رجل يعلبكي اسمه قالينيقس هذه النار

(١) خرج من العرب قياصرة مشهورون منهم فيليب وكان من بصرى في حوران ثم نقفور الاول من آل جبلة وبينه واستيراق ثم نقفور الثاني المعروف بابن الفقاس . اما نقفور الاول صاحب الرشيد فكان قبطياً اي اسيا ليث المال في عهد الملكة ايريني ثم لما رأى سوء اعمالها خلعها وولي الملك مكانها . ولعله كان يعرف العربية فكتب الى الرشيد بالعربية وكتب الرشيد اليه بخطه على ظهر الكتاب . وقد ورد اسمه في بعض التواريخ العربية نقفور وتفور وتكفور ونقفور والصواب الاخير وهو على يونائي معناه المنصور وكان اسمه . اما نقفور وتفور وتكفور فكان لقباً للملك الروماني ومعنى تكفور سراي في الاسنا . وهو تصحيف للقب الملوك الروم والكلمة ارمنية مركبة من تاج اور اي صاحب التاج . وكان الروم يسمون آل جبلة جبلاس (Tubalians) واتباعهم يلفظونها جبلة . وتولى كثيرون من آل جبلة مناصب الدولة وتقلبهم مذكور في تواريخ الروم الى الفتح العثماني وقد ابطلوا لا يزالون في القفار . واتفق اني مررت يوماً بين الموسكي والحزاوي في زيارة للشيخ طاهر الجزائري رحمه الله فرأيت دكان روبي كتب فوق بابه اسم صاحبه وكتب جبلاس كما يكتب الروم اسم جبلة . فاحببت ان اسأله عن اسمه واصله وكنت بملابس العسكرية فخشيت ان يرتاب بي لانا كنا في حرب وقلت اسأله في وقت آخر . ثم خرجت من القاهرة ولم اعد اليها الا هارباً من دمشق فنسيت ساحبي

المعروفة بالنار اليونانية وعرضها على معاوية رغماً في ثمنها فابى معاوية شراءها فباعها للروم فاستعملوها في رد غارة ابنه يزيد على القسطنطينية ثم في رد غارة مسلمة بن عبد الملك في زمن اخيه سليمان . والمشهور ان العرب اطلعوا على سر عملها في فتح سلانيك سنة ٩٠ ٤ للمسيح على ان استعمالها في فتح عمورية يدل على انهم عرفوا سرها قبل ذلك

٢ — النفط في البلاد العربية وما يجاورها

النفط في الشرق الادنى في بقعة من الارض يحدها شمالاً خط اولهُ في باكُه على بحر قزوين وآخرهُ في اضالية بآسية الصغرى ، ويحدها غرباً خط اولهُ في اضالية وآخرهُ في عدن ، ويحدها جنوباً ساحل جزيرة العرب على البحر الهندي ، ويحدها شرقاً خط من باكُه الى آخر الخليج الفارسي فيكون معظم البلاد العربية ضمن هذه الحدود . ويُظن ان النفط في هذه البقعة لا يفوقهُ نفط في الجودة والكثرة ولاسيما ما كان منهُ في ايران والعراق . والعرب تسمي الآبار التي يخرج منها النفط عيون النفط والنفاطات والنيارات ويسمون مستخرج النفط والقير وبائعهما نفاطاً وقيّاراً

ومن الاماكن التي فيها نفط او قار في البقعة التي مر ذكرها باكو والعرب تقول باكُه وباكويه وهي على الساحل الغربي من بحر قزوين . قال ياقوت في معجم البلدان « باكويه بلد من نواحي الدربند من نواحي الشروان فيه عين نفط عظيمة تبلغ غلتها في كل يوم الف درهم والى جانبها عين اخرى تسيل بنفط ابيض كدهن الزئبق

الثاني من آل جبلة . ولعله باق هناك او انه اثرى على عادة الروم فصار صاحب تجارة كبيرة في مكان آخر وعسى ان يكون ذلك . وقد كان دكانه في الطريق المؤدية الى المنزل الذي كان يسكنه الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله والسيد محب الدين الخطيب

اما نقفور الثاني فهو من ذرية رجل مسلم من طرسوس اسره الروم وحملوه الى القسطنطينية فتوفي فيها وكان من ولده بطارقة منهم الدمستق لأون فوقاس وقد اشار اليه المتنبي في قوله « اقل من ولد الفقاس متكفف » وحروبه لسيف الدولة مشهورة . فلما شاخ اعتزل الحرب وقيل ترهب وصار ابنه نقفور دمستقاً مكانه . وذكر المتنبي ترهبه في قصيدته التي مطلعها « لكل امرئ من دهره ما تعودا » وكانت عادة ملوك الروم وبطارقتهم ان يترهبوا في آخر ايامهم اما طوعاً او كرهاً . اما نقفور ابنه فكانت الحرب دائمة بينه وبين سيف الدولة الى ان عاد مرة من احدى غزواته ظافراً ومعه ايوفراس اسيراً فلما دخل القسطنطينية حمله الروم على اكتافهم . ثم ما لبث ان اغتاله البطريق يوحنا بن الشمشيق الارمني وكان نقفور يحبه محبة الآباء لابنائهم وقد تفقه وزهد وعلمه فنون الحرب وجعله بطريقاً ولما ولي الملك جعله دمستقاً مكانه فندر به وقتله وهو راقد في مضجعه وقيل كان ابن الشمشيق ابن اخته

لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً بلغ قياسها مئتي الاولى . وحدثني من اثق به من التجار انهُ رأى هناك أرضاً لا تزال تنضرم ناراً واحسب ان النار ستلت فيها من بعض الناس فهي لا تطفأ لان مدتها معدنية »

وقال المسعودي في التنبيه والاشراف الصفحة ٦٠ « البحر الخزري هو بحر الخزر ومنهم من يسميه البحر الخزراني لاتصاله ببلاد خوارزم من ارض خراسان وعليه ايضاً الموضع المعروف بباكُه وهي النفاطة من مملكة شروان مما يلي الباب والابواب ومن هناك يحمل النفط الابيض . وهناك آطام وهي عيون النيران تظهر من الارض وفيه جزائر مقابل النفاطة فيها عيون للنيران كثيرة تُرى في الليل على مسافة نائية . وقد ذكرنا في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر اخبار سائر الآطام مما في المعمور من الارض كاطمة سقلية واطمة وادي بَرَهوت من بلاد الشحر وحضرموت واطام البحر الخزري والباب والابواب واطام الشديخان بين بلاد فارس والاهواز تُرى بالليل من مسيرة اربعين فرسخاً واطمة اربوجان مما يلي الشيراوان من بلاد ماسبذان وهي المعروفة بحمة ترمان مما يلي منجلان وذلك يُرى على اربعين فرسخاً من بغداد على طريق البندنجين وايراز فروز »

وقال في مروج الذهب (٢ : ٢٥) باكُه وهي معدن النفط الابيض وغيره وليس في الدنيا والله اعلم نفط ابيض الا في هذا الموضع وهي ساحل مملكة شروان . وفي هذه النفاطة آطمة وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الاوقات تضطرم الصحناء . ويقابل هذا الساحل في البحر جزائر على نحو من ثلاثة ايام من الساحل فيها اطمة عظيمة تصفر في الاوقات في فصول السنة فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء كاشنع ما يكون من الخيال العالية فتضيء الاكثر من هذا البحر ويرى ذلك في مئة فرسخ من البر . وهذه الاطمة تشبه باطمة جبل البركان في بلاد صقلية من ارض الافرنجة الى ان قال « وبعدها اطمة وادي برَهوت وهي نحو بلاد اسفار وحضرموت من بلاد الشحر وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمان وصوتها يسمع كالرعد من اميال كثيرة تقذف في قعرها بحجر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء » انتهى ما اريد نقلهُ

وذكر في المجلد ٣ : ٦٧ من طبعة اوربا جزيرة صقلية وسمى الجبل الذي فيها بالبركان والاطمة وفسر الاطمة « بعين النار التي تنبع من الارض » وذكر آطمة

الترمان في الشيروان وقال « هي اطمة عجيبة لا يستطيع ردها الماء على اطفائها ودفعها لشدة قوتها وسلطان لهبها وهي احدى عجائب العالم »

والاطمة عند العرب عين النار ومراد خرجت منه النار من بركان كما في اطمة صقلية او من غازات خلقية مشتعلة كما في باكو وكركوك وامثالها . ولم ترد الاطمة بهذا المعنى في ما عثرت عليه من كتب اللغة وذكرها دوزي بفتح فسكون بمعنى جبل النار وقال لعلها من اطمى باليونانية وهو الدخان ووضع بعد قوله اشارة استفهام مما يدل على تردده في الامر . وفي مادة أطم بالعربية الفاظ تدل على النار والاحتراق منها الاطيمة وهي موقد النار او التنور الحمام والعامة في بغداد تسميها الطشة . ومنها تأطمت النار اي ارتفع لهبها (تاج العروس) ومثل مادة أطم أتن والتون والتيم يتبادلان . ومثلها عتن ومنه العثنان اي الدخان . ومن مادة أتن الاتون والعثنان من اصل سامي لا اصل يوناني وان جبل اتنا بصقلية وهو بركانها المشهور من اصل سامي وفعل الفينيقيين سموه بهذا الاسم وربما كان من اطمى باليونانية بمعنى دخان فان الفاظاً كثيرة باليونانية والعربية متشابهة وهي من لغة البشر قبل تفرقهم بعد الطوفان اي بعد ذوبان الثلج في العصر الجليدي وكان ذلك منذ الوف من السنين وكان البشر قد هلكوا في الاصقاع الشمالية وازدحم من بقي منهم في مصر وجزيرة العرب والعراق والهند وجزائر المحيط الهندي وكانت لغاتهم متشابهة في بعض الالفاظ ثم ذاب الثلج وأخذ البشر يرتحلون شمالاً فنقلوا الفاظاً كثيرة معهم لذلك ترى كثيراً من اساطير اليونان وآلهتهم والفاظهم تشبه ما عند الساميين من الالهة والالفاظ والاساطير

ومرّ الرحالة ماركو بولو بباكو في اواخر القرن الثالث عشر وذكر عيون النفط فيها قال « في اقاصي بلاد الكرج عين ينبع منها الزيت فيخرج منهُ في اليوم ما يملأ مئة سفينة . وزيتها لا يؤكل وانما يصلح للوقود ولدهن الابل الجرباء . والناس يأتون من الاماكن البعيدة ويجمعونهُ لانهُ لا زيت غيرهُ في تلك البلاد »

وذكر الرحالة يوناس هانواي نيران المجوس في رحلته الى باكو سنة ١٧٥٤ قال « ان النار التي يسميها المجوس بالنار الدائمة هي من عجائب الكون . وهي تخرج على عشرة اميال الى الشمال من باكو بشرق وهناك معابد قديمة يقال انها بيوت النار ورأيت الهرابذة[1] يعبدون النار في بيت منها وكان عددهم بين الاربعين والخمسين ، وقد جاء

(١) عبدة النار والواحد هربيد

هؤلاء المساكين من بلادهم لزيارتها . وقرب المعبد شقّ في الصخر عمقهُ نحو قدمين وطولهُ ست اقدام وعرضهُ ثلاث تخرج منهُ نار دائمة الاشتعال وهي لا تختلف في لونها ونطافتها عن نار المصباح لكنها اكثر منها صفاء واذا هبت الريح ارتفع لهيبها الى علوّ ثماني اقدام واذا سكنت انخفض عن ذلك ويقول الفرابذة انهُ لا يمكن دفنها واذا اطفئت اوسدّ منفذها فانها تخرج من مكان آخر . والارض هناك على مسافة ميلين او اكثر اذا كشف التراب عنها وأُدنيت منها جمرة متقدة فالمكان الذي يكشف التراب عنهُ يشتعل . اما اذا نقل التراب الى مكان آخر فانهُ لا يشتعل . واذا اخذت قصبة او انبوبة من الورق وغرزت احد طرفيها في التراب وادنيت جمرة من طرفها الآخر خرج منها لهيب ولم تحترق . والقوم هناك ينيرون منازلهم ويطبخون طعامهم بهذه النار » قال السر بُخرتن ودودُ وعنهُ اخذت ما تقدم انهُ وأنهم يطبخون آجُرَّهم بهذه النار في سنة ١٨٨٤

وهذه الآطام التي ذكرها المسعودي هي عيون النار كما قال وهي معروفة في باكه الى يومنا ولعلها نضبت الآن لكثرة ما أُخرج من نفطها . وكان الفرس يعبدونها فلما فتح العرب بلاد فارس ابطلوا عبادتها وهدموا بيوت النار ورحل من بقي على المجوسية من الفرس الى الهند وهم لا يزالون فيها ولكنهم لم ينقطعوا عن بيوت النار في باكه فكانوا يزورونها سرًّا خوفاً من المسلمين الى ان ابادوها منذ ثلاثمائة سنة او اكثر وكانوا يأتون اليها من الهند . ولم تنقطع عبادتها في باكه الى سنة ١٨٨٠ . ورأى السر بفرتن ردود بيتاً من بيوت النار سنة ١٨٨٤ ولم يكن فيهِ نار وانما كان يخرج غاز من شقوق في أرضهِ وكان يسهل اشعالهُ . وكانت باكُه من املاك ايران فالحقها بطرس الاكبر بروسية سنة ١٧٢٣ طمعاً في نفطها ثم استرجعتها ايران وعاد الروس واستولوا عليها سنة ١٨٠٦ ومنحوا امتياز استخراج النفط منها لرجل اسمهُ موزويف فربح منهُ اموالاً طائلة ثم نزع الامتياز سنة ١٨٧٤ واستبدلت ضريبة تدفع للحكومة . وإنَّ ابار باكه هذه العجوبة من اعاجيب الدنيا منها بئر فتحت سنة ١٨٨٣ كان يخرج منها في اليوم الواحد عشرة آلاف طن من النفط الاسود اي خمسمائة الف صفيحة ربحها في اليوم احد عشر الف ليرة انكليزية . وهناك ابار اخرى لا تقل عنها

اما قيراب بخوزستان فقد مر ذكرها والنفط فيها ملك الشركة الانكليزية الفارسية وهم يستخرجونهُ من مكان يقال لهُ سيدان نفطون اي ساحة النفط وينقلونهُ في انابيب الى عبّادان كما مرّ ويقطرونهُ هناك

بغداد امين معلوف